

النظام الدولي في القرن العشرين

بقلم محمد عبد الحفص نصر

ان نتائج التغير التاريخي لا تظهر مباشرة ، وانما تستلزم من مضي الوقت ما يكفل لها الظهور بدقة وشمول . وقد شاعت الأقدار لأهل القرن العشرين أن يعيشوا في زمن يحسون فيه بآثار الثورات الاقتصادية والاجتماعية والعلمية التي تفجرت في الخمسينات عام الأخيرة وشكلت حياة الدولة الحديثة وبالتالي العالم الحديث . فليس القرن العشرون في نظمه القومية والدولية سوى امتداد للنظم التي برزت وأخذت تتضح معالمها في القرن السادس عشر والترون التي أعقبته . ولكن هذا الامتداد في سعته وعمقه كاد يتخذ مظهراً مختلفاً لافي كنهه وحسب وانما في كيفية أيضاً . ويتجلى هذا التغير في الظروف العالمية مما قد اشتركنا جميعاً في تجربته حين اتخذ العدوان الانجليزي الفرنسي الاسرائيل من محطة الاذاعة المصرية هدفاً جوهرياً لتدميره . فالتقدم العلمي قد ربط الهواء كما ربط البر والبحر على سطح الكرة الأرضية . ومن ثم كان في استطاعة المصري المعتدى عليه أن يسمع العالم أجمعه عن طريق « اللامسكي » بأن حملة الاستعمار الغربي عليه لم تكن حملة بوليس كما ادعى ايدن وموليه ، وانما هي حملة لصوص . واذا أن من عادة اللص الجبان أن يسرق في الليل ، فقد حرص اللصان ، الانجليزي والفرنسي ، أن يحيطا مصر والعالم بظلام الجهل بأنباء الاعتداء بواسطة قطع صوت مصر المباشر الموجه الى أم المعمورة جمعاء ... وقد علمتنا تجربة ذلك العدوان أيضاً أن تشابك العالم لا يقف عند اتصال الأذهان بطريق الهواء ، وانما يتحقق كذلك في دنيا الصناعة والأسواق والمال ، فما أغلقت قناة السويس وتعطل تدفق البترول من الشرق الأوسط على موانئ أوروبا الغربية حتى تخلخلت آلة الحياة وأندرت الأقوام هنالك بالدمار والسلم كالحرب يثبت لنا جميعاً في كل لحظة من لحظات الليل والنهار وفي كل جانب من جوانب النشاط الانساني أن العالم قد أصبح وحدة

محكمة الاتصال وأن سبل هذا الاتصال قد تجاوزت ما كان في الحسبان أو الخيال عند أجدادنا من عاشوا في القرون الوسطى وما قبلها بل من عاشوا في القرن التاسع عشر . فالطائرة قد يسرت من الأسفار في اليوم الواحد ما كان يستغرق في الأزمان الماضية الشهور والأعوام . ومن يطلع على وصف ادويسى للأرض ويرى خريطته التي رسمها لروجار الثاني الصقلي في منتصف القرن الثاني عشر يتبين حقيقة التغيير في إدراك الإنسان المعاصر لحقائق العالم وخفاياه في القرن العشرين .

ويمننا أن نبين هذه الحقيقة الكبيرة وهي أن العالم قد أصبح وحدة مترابطة الحلقات وأن كل حلقة منها تعتمد على الأخرى اعتماداً يحول دون الاكتفاء الذاتي أو الاستقلال التام . فإن اكتناه هذه الظاهرة وتعمق مغزاها يجعلنا نتساءل عما إذا كان نظام الحكم الدولي قد تطور التطور المناسب لهذا الاتجاه العالمي القوي نحو التوحيد في صلات العقول والبطون والجيوب ، أم أنه لا يزال يحتفظ بالأشكال التي اصطنعها في عهود العزلة والانفصال . ولعلنا في مصر أكثر الشعوب احساساً بأهمية التلاؤم بين المظهر والمخبر ، إذ أن تطور أجسامنا من النحافة الى السمنة كثيراً ما يفرض علينا أن نغير أثوابنا ونجعلها فضفاضة بعد أن كانت محبوكة . ومثل الدول في القرن العشرين مثل الأفراد تداخلت وامتدت حدودها بامتداد مصالحها في ظل هذه الثورة الاقتصادية العلمية ، وبقي عليها أن تغير أثوابها السياسية وأن تجعلها فضفاضة لتتسع لهذا الامتداد المادى وتعين المجتمع الانساني على أن يكون مجتمعاً مفتوحاً متحرراً من السدود والقيود .

ويواجه القرن العشرون بهذا المشكلة المستعصية ، فقد تهاها الانسان فيه من قوى العلم ما جعله الوارث المستنمر لكنوز الأرض وثروتها في المشرق والمغرب ، وذلك في الوقت الذي احتفظ فيه بأشكال سياسية ضيقة قائمة على العاطفة الحماسية والمصلحة الذاتية . هذه الأشكال السياسية هي ما يعرف بالدول القومية التي ظهرت في أوروبا وقويت في القرنين السادس عشر والسابع عشر ووجدت من الثورة الأمريكية في القرن الثامن عشر ما أكد حقيقتها

وأشاع مثلها العمل بين الشعوب ، ومن الثورة الفرنسية ما أضفى عليها من شعارات التحرر والمساواة قداسة لم تنل منها غزوات نابليون وأمبراطوريته بل نقلتها الى الأعداء أنفسهم فردد صلواتها في القرن التاسع عشر فخته وهيجل وترينشك في ألمانيا ، وماتزيني في ايطاليا ، ورينان في فرنسا ، ويردها ساسة القرن العشرين وفلاسفته القوميون بأقوى ما يكون الإيمان في ألمانيا وايطاليا والولايات المتحدة وروسيا ، ثم شاركت آسيا وأفريقيا في هذه العبادة القومية مشاركة سجلت ثوره اليقظة في العالم القديم بعد نوم طويل . ففي كل مكان ترتفع الصيحة التي نعرف في مصر نغماتها جيداً « يا ابن بلدى » و « يا بنت بلدى » وتجد الدول الصغيرة في هذه الصيحة اثباتا للشخصية ودعوة للتجمع دفاعا عن النفس وتحقيقاً للمعيشة الطيبة ، كما تجد فيها الدول الكبرى نداء الذئب لأخيه الذئب ليتعاون وأنياء في اقتناص الفريسة ، وفي كلا الاتجاهين - الاتجاه الانكماشى والاتجاه التوسعى - تعبير عن العاطفة القومية تعبيرا مناقضا لما أصبح عليه حال العالم اليوم من اعتماد متبادل في شئون الحياة والفكر الانسانى .

ولقد قاسى القرن العشرون من النظام القومى الذى ساد في الحضارة الغربية خاصة منذ أواخر القرن التاسع عشر ومن النظام الأمبراطورى الذى اتخذ القومية سندا لتحقيق مصالحه الطبقية في الحصول على المواد الخام واستثمار الأموال واحتكار الأسواق والاستيلاء على القواعد والمراكز الاستراتيجية في الأمم الآسوية والافريقية الضعيفة - كما أصاب مصر من جرائه في الاحتلال البريطانى في سنة ١٨٨٢ وكما تجدد من عدوان عليها في محاولة الاستعمار المشترك سنة ١٩٥٦ . ومن الطريف أن أنصار القومية الامتعمارية في الغرب يذهبون الى أن للدولة المتفوقة حق التوسع والنمو على حساب الأعضاء الضعيفة من أمم العالم ، بل أن الاستعمار في هذه الحالة لا يعتبر حقاً وحسب وإنما يعتبر واجبا عليه المصير الواضح ... وحتى الولايات المتحدة التي ذاقت استعمار البريطانيين وكانت تفتخر بأنها رائدة من رواد الحرية في الغرب رأى ساستها ومفكروها ازاء اغلاق التوسع في حدودها البرية الغربية قرب نهاية القرن التاسع عشر أن رسالة الحضارة تدفعها الى التوسع خارج حدودها في نصف الكرة الغربى ،

بل نحو الغرب كذلك في جزر المحيط الهادى . ولقد بلغت الولايات المتحدة أقصى غايات التوسع في هذا الاتجاه حين استولت على جزر هاواى بين سنة ١٨٩٣ وسنة ١٨٩٨ ، وعلى جزر الفلبين التي تنازلت عنها أسبانيا نتيجة الحرب معها بمعامدة باريس سنة ١٨٩٨ . ولقد ألزم هذا التوسع الولايات المتحدة بالدفاع عن منطقة شاسعة تبعد خمسة آلاف ميل بحرى غربى هونولولو وسبعة آلاف ميل بحرى غربى كاليفورنيا ، ولكن تبعد سبعمائة ميل من ساحل الصين ومائتين وخمسين ميلا فقط من قورنوزا ، وألف وسبعمائة ميل من يوكوهاما وأقل من ألف وأربعمائة ميل من سنغافورة . وأن دائرة مركزها ماينا ، وتطرها حول ١٥٠٠ ميل ، تحيط بالأقليم الصناعى في اليابان ، وجميع كوريا ، والجزء الرئيسى من الصين ، والهند الصينية الفرنسية وبرما والمالايو وجزر الهند ، ولقد وضعت الولاى المتحدة نفسها بإستيلائها على الفلبين في المركز الجغرافى للإمبراطوريات آسيا الشرقية ، وفق الملتقى الاستراتيجى لخطوط المواصلات . ولم يسع جون هاى ، الوزير الأمريكى ، إلا أن يقدم بعد ذلك في سنة ١٩٠٠ مذكراته عن « الباب المفتوح في الصين » وأن يرسل خطاباً دورياً يعلن فيه أن سياسة الولايات المتحدة تسعى الى المحافظة على الوجود الصينى الأقليمى والادارى (١).

وهكذا ظهر أن مسرح السياسة الدولية لا يتبع إلا للإمبراطوريات المتسابقة في طلب المزيد من الممتلكات ومناطق النفوذ والاستثمار . واقتتح القرن العشرون على دقات ناقوس استعمار قوى جديد من امبراطورية المانية نامية متطلعة في الغرب وامبراطورية يابانية ناشئة طموحة في الشرق . وحاولت الامبراطورية البريطانية أن تتكيف لمواجهة هذا الخطر ، فذهب ساسنها الى أن دم الجزيرة البريطانية في وسعه أن يتمثل الدم الأبيض في المستعمرات وأن يكون معه وحدة عضوية على شرط الايمن دم الكندي الفرنسى الى فرنسا أو دم الافريقى من البوير الى هولندا وإنما يقتصر

Walter Lippmann — U. S. Foreign Policy, New York, Pocket Rocks, (١)

1943 p. 17

على الامتزاج بدم البريطانى فى الجزيرة البريطانية ويشترك فى الدفاع عنه أمام خطر الإستعمار المنافس الجديد . فألقى عباقرة التوفيق البريطانيون بأن القومية فى معناها تتعدى المفهوم الذى تصده ماتزنى وبسبارك من اشتها على أبناء الشعب الواحد المشتركين فى أسلوب أشبه بالقلب المنسجم للعادات والتقاليد والسلوك ، وأنها قادرة على تمثل الأنواع المختلفة من الثقافات طالما تخضع للون الغالب منها . ثم ذهبوا الى أبعد من هذا فى أنفسهم فى أنهم قرروا عدم الاقتصار على أن يشركوا معهم اللون الأبيض فى المستعمرات فى مهمة الدفاع عن الإمبراطورية ، بل أن يجندوا أبناء المستعمرات الملونة كذلك فى صراع الأوروبى الأبيض على الامتلاك والاقتناء والقوة والسلطان فى عالم الانسان .

ولقد كان أمرا محتوما أن يؤدي هذا الصراع بين الامبراطوريات الأسيوية والامبراطوريات الاستعمارية الى الاحتكام الى الحرب لتقرير مصير مناطق الاستغلال فى آسيا وافريقيا ، وقرار نظام جديد فى العلاقات الدولية يساير حقائق التطور الذى حدث بين معركة واترلوا سنة ١٨١٤ ومعركة بلجيككا سنة ١٩١٤ ، وقد حدثت الحرب ، وهى دائما حسب نظرية الدولة الكلاسيكية مظهر من سيادة الدولة وعلان كلمتها وفرضها فى العلاقات الدولية قانونها الخاص وتعبير عن ارادتها وحريتها . وكانت بدأ دورة الحرب فى القرن العشرين . ولكن لم تنته بالسرعة التى توقعها الالمان لأضطرارهم الى الحرب فى جبهتين ، ولاعتمادها على القوى الآلية المدمرة التى انتجها الفن والابتكار الانسانى فى عالم الصناعة الحديثة والتى استتبعت اسرافا باهظا فى القضاء على حياة الجنود فى ميادين القتال . واكتشف المحاربون أن الحرب لم تعد فى ظل الآلة الفنية الصناعية الجبارة نوعا من فروسية العصور الوسطى ، بل أصبحت إثناء أعمى لحياة الانسان . وقد فرضت هذه التجربة القاسية على أذهان الساسة والمفكرين العمل على الحد من عبء الحرب الحديثة أثناء المعركة وفى اعقاب المعركة . وانتهى كثير من الأحرار الى نتيجة مناقضة للقضية التى دفع بها الناس الى الحرب ، وهى أن نظرية السيادة المطلقة التقليدية للدولة التى ترى فى الحرب التعبير النهائى لها لم تعد متجاوبة مع ظروف القرن العشرين وأنه يجب اقامة سلطة

دولية تمهد من سلطة الدولة القومية وتنظم العلاقات الخارجية على أسس من العدالة والمساواة الدولية . وهكذا بدأت الحرب تعبيراً عن المبدأ القائل بأن سلطة الدولة هي السلطة النهائية ، وانتهت بالمبدأ القائل بأن العالم المعاصر لا بد له من سلطة عليا فوق سلطة الدولة القومية .

وان هذا الدرس في السياسة الدولية الذي أكدته الرغبة في تجنب البشر توالى الحروب المييدة عليه ، والذي ولدته تجربة العمل المشترك بين الحلفاء أثناء الحرب وتصميمهم على مواصلة التعاون في السلم مثلما فعلوا في الحروب ، والذي أمله على الساسة والمفكرين آمال بجاهير الناس ومطامعهم في حياة آمنة مستقرة ، قد وجد تطبيقاً عملياً في ميثاق عصبة الأمم بعد الحرب العالمية الأولى وميثاق هيئة الأمم المتحدة في الحرب العالمية الثانية . وأصبح القرن العشرون بإنشاء هاتين المنظمين الدوليتين منفرداً بين العصور الحديثة بهذا التجريب في إقامة نظام دولي على نطاق شامل عالمي .

وفي الواقع أن هذا النظام الدولي الذي أخذ القرن العشرون في تجريبه يحمل في ثناياه خصائص مراحل التطور التي يمر بها البشر في إدارة شئونهم الداخلية والخارجية . فكلتا المؤسستين الدوليتين - مؤسسة جنيف ومؤسسة سان فرانسيسكو - وإن كانتا قد نشأتا في جو من الحرب والاحساس بالخطر ، إلا أنه ما كان من الممكن اتفاق الدول على قيامهما لولا أن ميثاقهما قد تضمنتا عدم الاعتداء على سيادة الدولة القومية التقليدية ، والاعتماد على رضاها في الانتساب الى المنظمة الدولية ، والحفاظ على هذه السيادة . فالدول المشتركة في عصبة الأمم وفي هيئة الأمم المتحدة قد اشتركت فيهما كدول لا شعوب ويمثلوها في نشاطهما ممثلو دول لا ممثلو شعوب ، ومن ثم فعصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة جمعيتان أو هيئتان للأمم ممثلة بصفتها السياسية لا بصفتها الاجتماعية . (١)

HARRIS, W. Wilson — The League of Nations London, Benn Ltd, 1929 P.5 (١)

ويحسن بنا أن نقف عند هذا الحد من المقارنة بين عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة كأداتين لتحقيق النظام الدولي في القرن العشرين ، فلقد أحاطت بكل منهما ظروف أكدت أن العامل الحاسم في تكوين سلطتهما التنفيذية يرتكز على سلطة الدول العظمى ، مما ضمن لها الكراسي الدائمة في مجلس العصبة ، ومجلس الأمن في هيئة الأمم ، وضمن لها التفرد بالبت في المسائل ذات الصبغة الأساسية في السياسة الدولية ، ولكن الظروف الدولية الأخرى المتغيرة قد شكلتهما تشكيلا مختلفا في كثير من التفاصيل ، فعصبة الأمم قد تفررت في اجتماع الثلاثة الكبار - ولسون الأمريكي وكليمنصو الفرنسي ولويد جورج البريطاني في يناير سنة ١٩١٩ ، ولكن التقرير النهائي لتنظيم هيئة الأمم المتحدة قد وضع في اجتماع ثلاثة كبار آخر - روزفلت الأمريكي وستالين الروسي وتشرشل البريطاني - في يالطا في فبراير سنة ١٩٤٥ ، معلنا أن سلطة أوروبا في ميزان القوى الدولي قد أخذت في الأنفول ، وأن مركز الجاذبية والقررة في العالم المعاصر قد أصبح متقاسما بين الولايات المتحدة وروسيا مما ترك أثرا جوهريا في مسرح السياسة الدولية وطبيعة العلاقات بين الدول في منتصف القرن العشرين وفي ضوء هذا التغير في ميزان القوى الدول ، أصبحت المنظمتان الدوليتان من ناحية النظر والتطبيق يمثلان عهدين وأن قصر بينهما الزمن إلا أنه قد بعدت بينهما الشقة في مراحل التطور.

فعصبة الأمم قد تأثرت من نشأتها بعد الحرب ومن تضمن ميثاقها معاهدة فرساي وجعله جزءا منها ، فوادها تكون السنة والعشرين مادة الأولى من تلك المعاهدة . ولقد كان اصرار « ولسون » على تضمن نص ميثاقها المعاهدة ، ليضمن موافقة البرلمان الأمريكي عليه ، سببا من أسباب تحميل العصبة أوزار تلك المعاهدة الجائرة المتحيزة . ومن سخرية القدر أن مجلس الشيوخ الأمريكي رفض الموافقة على ميثاق العصبة وأعلن عودة الولايات المتحدة الى عزلتها التقليدية وتحليها عن تحمل مسؤوليات حرب رأى أعضاء المجلس أنهم انما دخلوها يدافع من رجال البنوك الدوليين والرأسمالية الدولية والدبلوماسية البريطانية . وذهبت بذلك جهود ولسون هباء من ناحية محاولة اشراك أمريكا

في هذه المنظمة الدولية . وكان انسحاب الولايات المتحدة من الاشتراك فيها الركن الأول في تقويض صفة العالمية عنها ، بالرغم من صفتها الدولية . ولم تكن الولايات المتحدة هي الدولة الكبرى الوحيدة التي تخلت عن العضوية في عصبة الأمم وإنما افتقدت اشراك روسيا والمانيا في بادئ الأمر . واستمر الحال كذلك على هذا المنوال فلو أن المانيا انضمت الى العصبة في سنة ١٩٢٦ ، وانضمت روسيا اليها في سنة ١٩٣٤ ، إلا ان المانيا كانت قد تركتها عند دخول روسيا . كما أنها ضعفت بانسحاب اليابان في سنة ١٩٣٣ وقد انتهى بها الأمر لأن تكون أداة تنفيذ لمآرب بريطانيا وفرنسا ، ومحاظفة على الوضع الراهن الذي خلقتة معاهدة فرساي ، وفقدت الصفة الجوهرية التي أريد بها أن تكون العصبة أداة تغير سلمى في العلاقات الدولية كما نتمنى ذلك ولسوف وتركت المجال لحل المشاكل الدولية بالعنف وحده ، والمسرح الدولي ميدانا للتفاوض السياسية . ولقد لعبت فرنسا دور الأند في التآمر على السلامة الدولية بأن عقدت المعاهدات الدفاعية مع دول أوروبا الوسطى والشرقية التي خلقتها معاهدة فرساي واقنعت تلك الدول بأن أى اصلاح لمشاكل الأقليات أو المشاكل الجغرافية التي نجمت عن معاهدة فرساي إنما هو اعتداء على كيان تلك الدول ذاته ، واتخذت هي وانجلترا من العصبة وسيلة لالقاء ضوء من القداسة والعدالة الدولية على تركة اغتصبها اللصوص البريطانيون والفرنسيون وحرصوا على أن يمنعوا سواهم من أن تقرب أيديهم اليها (١) .

ولكن أهمالك بريطانيا وفرنسا في اجثناء ثمار معاهدة فرساي المحرمة واحتماءهما بعصبة الأمم لتغطية المشاكل الأوربية والدولية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لم يمنعنا الحركات السياسية المذهبية المضادة من السيطرة على المسرح الأوربي وبناء الدولة المذهبية في ايطاليا والمانيا بعد أن قامت في روسيا . وظهر بذلك عامل جديد في السياسة يقوم على الصراع الفكرى الى جانب الصراع بين القوى الدولية التقليدية . وبما عقد الموقف أن هذه الحركات الجديدة في أوروبا كانت تؤمن بالحرب وتستعد لها في الوقت الذي اطمأن فيه

JOAD, C. E. M. — Why War, Penguin Books Ltd, 1939 p. 166. (١)

بلقاء الى انتصارهم ونشئت حلفهم بالنسحاب الولايات المتحدة والتجائها
 الى عزلتها الصليدية ، وبتخلي بريطانيا عن ضمانها لحدود فرنسا بعد أن تحملت
 الولايات المتحدة عن ذلك . وجاء تعقيد الموقف الدولي كذلك نتيجة لأن
 الفاشية والنازية قد مجدا الحرب كوسيلة لإحياء الشعوب وبعث نهضاتها وذهبتا
 الى أن العلاقات الدولية لا تقوم إلا على مبدأ التعارض بين «الصديق» و«العدو»
 وعلى مبدأ هيكل الاخلاق في أن الاخلاق الاجتماعية محدودة بحدود الدولة
 القومية ولا تتجاوز تلك الحدود الى ماوراءها من دول أخرى . وتلخص
 موقف الفاشية والنازية في انكار قيام نظام دولي إلا على أساس من الغزو ،
 كما وعد بذلك هتلر لتحقيق نظام أوربي يضمن السلام لألف عام . وأمام هذا
 التصميم من ألمانيا النازية وإيطاليا الفاشية واليابان العسكرية على الاستعداد
 للحرب وعقد حلف مشترك تحت ستار الميثاق المعادى للشيوعية الدولية
 في سنة ١٩٣٦ ، تضاعفت جهود عصبة الأمم في حفظ النظم القائمة خاصة
 بعد أن عجزت عن مقاومة عدوان اليابان في منشوريا سنة ١٩٣١ وعدوان
 إيطاليا في الحبشة سنة ١٩٣٦ وعدوان ألمانيا في تشيكوسلوفاكيا سنة ١٩٣٨
 وسنة ١٩٣٩ . ولم تقرب الحرب العالمية الثانية من موعد اعلانها حتى كانت
 عصبة الأمم مجازا من المحازات ، وذهبت أمواج الرياح وسط محاولات
 الانقاذ اليائسة في اعادة تنظيم العالم على أسس دولية أصلح وأبقى .

وتجددت محاولة اقامة نظام دولي أقرب الى ارضاء حاجات العالم الى الأمن
 والسلام مرة أخرى أثناء المعارك التي شملت المدنيين والعسكريين على السواء
 في الحرب العالمية الثانية . فبعد أن كان الجنود المحترقون هم وحدهم وقود
 الحروب السابقة في تاريخ البشر امتد الميدان الى الشيب والشبان في عمر ديارهم
 بل اتخذ في نهاية الحرب مظهرا مرعبا ، حين نضت القنبلة الذرية في بدأ تجريبها
 على مدينتي هيروشيما ونجازاكي في لمح البصر ، وسجلت بذلك طورا جديدا
 من أطوار الحرب التي لا تبتى ولا تذر . ولهذا حرص روزفلت على ألا تنتهي
 الحرب قبل أن يفتق وروسيا على الأمور المعلقة التي لم يستطع الاتفاق عليها
 (بشأن المنظمة الدولية الجديدة) مندوبو روسيا وأمريكا وبريطانيا في مؤتمر
 ديمارتون أوكس ، في واشنطن في سبتمبر سنة ١٩٤٤ . فأولئك المندوبون

لم يستطيعوا الاتفاق على بعض الجوانب الجوهرية لاجراءات الاقتراح وقد اتجهت أفكار روزفلت الى عقد مؤتمر ثلاثى منه ومن ستالين وتشرشل لحل المسائل الدولية المعلقة وفي مقدمتها مسألة هيئة الأمم المتحدة . وتم ترتيب هذا الاجتماع في بالتا في القرم في فبراير سنة ١٩٤٥ ، وقد وافق فيه الروس على كل شئ طالب به الامريكيون في مؤتمر ديمارتون او كس ، فأولاً قبلوا طريقة الاقتراح في مجلس الأمن التي اقترحها الامريكيون ، ولثانياً سمحوا بمطالبتهم بأن يكون لهم ستة عشر صوتاً في « الجمعية العامة » وأخذوا بدلاً من ذلك أصواتاً وممثلين اضافيين من الأوكرين وروسيا البيضاء . وثالثاً وافق ستالين على اقتراح روزفلت بأن جميع الأمم التي كانت في حرب مع ألمانيا عند أول مارس سنة ١٩٤٥ قد تصبح أعضاء في هيئة الأمم المتحدة - وهذا تنازل هام مكن للولايات المتحدة أن تقوى مركزها في الجمعية العامة عن طريق التمثيل الكامل لأمريكا اللاتينية (١) .

ولو أننا تأملنا تركيب الأمم المتحدة ونظام عملها ، لوجدناه قائماً على توفيق بين مطالب القانون ومطالب القوة من ناحية ، وبعبارة أخرى حاول أن يرضى مبدأ المساواة بين الأمم في الجمعية العامة للهيئة بأن ساوى بين الدول المشتركة كبيرها وصغيرها وذلك بإعطاء كل منها صوتاً واحداً ، وجعل قرارات الجمعية بالأغلبية العديدة ، ولكن ميز الدول الكبرى في مجلس الأمن أو السلطة التنفيذية للهيئة وذلك بجعل خمسة دول منها أعضاء دائمين في المجلس ووزع البقية الأعضاء الأخرى في مجلس الأمن بين دول العالم جميعاً تتداول تمثيلهم بطريقة تتخضع لاعتبارات جغرافية ونيابية دولية . ثم اشترط إجماع الخمسة الأعضاء الدائمين لنفاذ أى قرار من القرارات الهامة في العلاقات الدولية . ومعنى هذا الإجماع أن رفض أى عضو من الأعضاء الخمسة لقرار من القرارات يبطل عمله وتنفيذه . وكان هذا النظام قد قصر في الوقت الذى يعترف فيه بتساوى الدول الأعضاء في السيادة القومية من الناحية النظرية السيادة الحقيقية الفعالة على خمسة دول وحسب ، أضفى عليها صفة الدوام « والعقد والحل » في الشئون العالمية على حد تعبير فقهاء المسلمين .

(١) Link, Arthur · American Epoch, New York, Alfred A. Knopf, 1955 p. 560 - 3.

ولا شك في أن تنظيم هيئة الأمم المتحدة قد تدارك الكثير من النقص في تنظيمات عصبة الأمم ، ولا سيما فيما يتصل بمنح مجلس الأمن سلطات فعالة بشأن رد عدوان المعتدى على السلام العالمي ، وتضمينه ميثاق الهيئة من احتياطات عسكرية وبوليسية خلا منها ميثاق عصبة الأمم الذي افترض حب العالم للسلام وتمككه به واستند الى مساهمة الدول الأعضاء مساهمة تلقائية في وقف عدوان المعتدين . ولكن اشتراط اجماع دول كبرى يحس لتنفيذ قرار من القرارات الدولية الهامة ، مثله مثل اشتراط اجماع الدول الأعضاء جميعاً كما قضى بذلك ميثاق عصبة الأمم ، أمر معوق لأداء هيئة الأمم المتحدة غرضها في عدالة ترضى وما استهدف تحقيقه ميثاقها ، وأن مسألة الحرب في كوريا والعدوان الثلاثي على مصر في المدة الأخيرة بقومان مثالا حيا على فساد هذا النظام في الادارة الدولية . فلقد عدت الولايات المتحدة أنه من حسن الحظ في مشكلة كوريا سنة ١٩٥٠ أن تكون روسيا متغية عن اجتماعات مجلس الأمن ، فقادت حركة اتحاد قرار بأن غزو الشمال لجنوب كوريا كسر للسلام وطلب انسحاب القوات الى ما يوازي خط عرض ٣٨ . فوافق على الاقتراح ب ٩ أصوات الى ١ (يوجوسلافيا) ... ثم عملت بعد ذلك على اتخاذ قرار بمعاونة الأمم المتحدة لحكومة جنوب كوريا في رد الاعتداء ووفقى على القرار ب ٧ الى ١ . فيوجوسلافيا قالت « لا » أما مثلاً مصر والهند فقد امتنعا عن التصويت لعدم حصولهما على تعليقات من حكومتهما ، وفي نفس اليوم أعلن ترومان أنه أمر قوات الولايات المتحدة الجوية والبحرية بمساعدة كوريا الجنوبية (يونيه سنة ١٩٥٠) . وأما عن العدوان الثلاثي على مصر فقد اتخذت بريطانيا وفرنسا من امتياز حق رفض قرارات مجلس الأمن ، وتعطيل الادارة الدولية من العمل في أزمات الأمن الدولي ، وسيلة لحماية العدوان وتبريره وقتل السلام في سبيل مصلحة الاستعمار الذي يقوم وصياً في مجلس الامن على رعاية العدالة والحق في المجتمع العالمي الكبير .

ولقد دعا هذا النظام المتحيز في ادارة مجلس الامن الى كثير من الصيحات والمحاولات لتعديله ، ولكن ميثاق الهيئة يشترط موافقة الأعضاء الدائمين على كل تعديل جوهرى . ودلت التجربة أن أصحاب الامتياز قلما يتنازلون

عن امتيازهم طوعا واختياراً . غير أنه يجدر بنا ألا يحكم على نظام هيئة الأمم من الناحية النظامية الا اذا أخذنا في الاعتبار أن مسألة صياغة نظام الهيئة قد تمت أثناء الحرب قبل أن تظهر التعقيدات الخاصة بتسوية مشاكل الصلح في المانيا واليابان ودول أوروبا الشرقية وغيرها ، وأن أى نظام لا يعمل في ذاته في الفراغ وإنما يتقرر أسلوب عمله بالظروف المحيطة به ، ومن ثم ينبغي أن نلاحظ أن نظام الهيئة مرتبط بنظام القوى في العالم المعاصر . وإذ أن الدول الكبرى لم تعد خمساً أو ثلاثاً وإنما هي اثنان - روسيا والولايات المتحدة - وأنها أصبحتا مركزى جاذبية في ميزان القوى الدولي يلتف حولهما باقى دول العالم تحقيقاً للرغبة في التجمع التماساً للأمن النسبي في عالم عجزت هيئة الأمم المتحدة أن تحل مشاكله بأسلوبها المعتاد ، فقد حدثت رجعة قوية الى فكرة الأحلاف الإقليمية والخاصة التى حكمت السياسة العالمية في الثلاثة قرون الأخيرة التى حرصت الولايات المتحدة على تضمينها ميثاق العصبة لتحمى العمل داخل المجموعة الأمريكية وتبقى عليه . وكما هددت المعاهدات الخاصة بين الدول كيان عصبة الأمم ، فإنما تهدد الأحلاف الآن كيان هيئة الأمم المتحدة . فالولايات المتحدة التى كانت بين الحربين تؤمن بالعزلة وعدم الاشتباك في أحلاف كوسيلة من وسائل المحافظة على سيادتها القومية وحريتها في التصرف عادت فأقبلت عليها بعد الحرب العالمية الثانية اقبالا إيجابياً فعلا ، بدافع من مصالحها التى عمت العالم بأسره والتي جعلت الولايات المتحدة تدعى أن أمنها في أمن كل منطقة ترى هي أنه يهملها أمرها^(١) . وقد أخذت شبكة هذه الأحلاف تم الشرق والغرب وأصبح عددها يتحدى الحصر في ميادين السياسة والاقتصاد والاجتماع والدفاع والثقافة وغير ذلك مما حمل ميثاق الهيئة عبء تشجيعه من الناحية النظرية . والجامعة العربية إنما هي حلف من هذه الأحلاف الإقليمية . ولكن أهم هذه الأحلاف هي حلف الأطنطى وحلف بغداد وحلف جنوب شرق آسيا بين الكتلة الغربية وحلف وارسو بين الكتلة الشرقية . ولو أن هذه الأحلاف قصد بها تأييد أغراض هيئة الأمم المتحدة حسب نص

(١) MAXEY, Chester — Political Philosophies p. 692

الميثاق فقط ، لفهم الأمر ، ولكن البيانات التي أدلى بها مندوبو الدول التي وقعت ميثاق الأطلنطي تذكر بصراحة عجز الأمم المتحدة عن حفظ الأمن العام وضرورة الاستعاضة عنها بأحلاف بين مجموعات منسجمة في المصالح ووجهة النظر ولم يقتصر الأمر على التحالف الاختياري بين الدول ، وإنما تظهر نزعة قوية في المعسكر الغربي بقيادة الولايات المتحدة نحو تكتيل العالم وتجميده في أحلاف مواليه عن رضى أو كره . ومن الملاحظ بعد الحرب العالمية الثانية أن الدول الكبرى على وجه العموم تعامل فكرة السيادة القومية التقليدية بخشونة وقسوة ، ومن لم يطأئ الرأس ويتبع الدولة القائدة لتي من أساليب الهدم لنظامه الداخلى ما ليس في الحسينان ، فمن اثاره للمؤامرات والانتقابات ومن تهديد بالعنف ومن مقاطعة في الاقتصاد ومن اغراء بالدولار وغير ذلك .

ولكن وسط هذا الخلو الذي ينتر بالعودة الى الفوضى السياسية التي تنجم عن الأحلاف والاعتماد على القوة المادية في السياسة الدولية ، تظهر قبسات من نور وأمل تنبعث من العالم القديم في آسيا وأفريقيا . فدول هاتين القارتين (وقد استيقظت من النوم الذي فرضه عليها الإستعمار الغربي) تبرز الى الوجود قوة تبشر بعالم حضارى له من مقاييس التعايش السلمى ما لا يستطيع الغرب بطبيعة حضارته أن يمارسها أو يصر عليها . ومؤتمر بانندونج جدر بأن يصبح في المستقبل نقطة تحول في تاريخ الحضارة الإنسانية وعلماً من أعلام الطريق .

كما أن إيمان الانسانية المتجدد في امكان قيام نظام عالمى منذ القدم لا بد وأن يجد يوماً ما طريقه الى الوجود بعد أن ينتهى الغرب من حقيقته التاريخية وينزوى خجلاً من آثامه قبل الإنسانية . وأن أحلام رجال في تحقيق السلام مثل وليام بن William penn والأب سان بيير Abbé Saint-Pierre وروسو Rousseau وكانت Kant وجراهام والاس Graham Wallace ولاسكى Laski وغيرهم من قادة الإنسان في بحر الحياة اللجج المدطم سوف تصبح حقائق بعد الأنصار في آلام التجارب التي تذكر الإنسان في دنياه بيوم الحساب في أخراه .

ومن يدرك كذلك ؟ لعل الإسلام في يقظته من المحيط الأطلسي الى المحيط الهادى ، يبني لبني الإنسان حضارة جديدة نبيلة كما فعل ذلك من قبل .